المقالة الرابعة
في علم الطب وهداية الطبيب

الطب صناعة تحفظ الصحة في بدن الإنسان حاصلة وتستردها زايلة، وبها يزدان الجسم، بطول الشعر وصفاء البشرة وطيب الرائحة والنشاط.

وأما الطبيب فينبغي أن يكون رقيق الخلق، حكيم النفس، جيد الحدْس. والحدس حركة نفسية توحي بالآراء الصائبة، أعني سرعة الانتقال من المجهول إلى المعلوم. ولا يكون الطبيب رقيق الخلق ما لم يعرف شرف النفس الإنسانية. ولا يكون حكيم النفس ما لم يعرف المنطق، كما أنه لا يكون جيد الحدس ما لم يكن مؤيدًا بالتأييد الإلهي، والطبيب الذي لا يكون جيد الحدس لا يصل إلى معرفة العلة. ذلك أنه يستدل على حالة المريض بالنبض، والنبض حركة الانقباض لا تدرك بالحس، ولكن أفضل المتأخرين حجة الحق الحسين بن عبد الله بن سينا يقول في كتاب «القانون»: إنه يمكن بصعوبة إدراك حركة الانقباض بالحس في المهازيل. ثم إن النبض عشرة أجناس، وكل جنس منه ثلاثة هي طفاه واعتداله. وما لم يصاحب الطبيب التأييد الإلهي لا يستطيع أن يصيب الفكرة.

وكذلك التفسرة[1]، فمراعاة الألوان والرسوب والاستدلال من كل لون على حالة، ليس من الأمور الهينة. وهذه الدلائل كلها مفتقرة إلى التأييد الإلهي والهداية الملكية، وهذا هو المعنى الذي أردنا بعبارة الحدس.

(١) التفسرة البول الذي يستدل به على المرض وينظر فيه الأطباء ويستدلون بلونه على علة العليل.

وما لم يعرف الطبيب المنطق والجنس والنوع فإنه لا يستطيع أن يفرق بين الفصل والخاصة والعرض، كما أنه لا يستطيع إدراك العلة، وإذا جهل العلة لا يستطيع أن يصيب في العلاج. ونضرب مثلا يوضح ما نقول، المرض جنس والحمى والصداع والزكام والهذيان والحصبة واليرقان أنواع، وكل منها يغاير الآخر بفصل، ثم هو بنفسه جنس؛ فمثلا الحمى جنس، وحمى اليوم وحمى الغِبّ وحمى شطر الغب وحمى الرِبع أنواع؛ وكل نوع منها يختلف عن الأنواع الأخرى بفصل ذاتي، فحمى اليوم تختلف عن الحميات الأخرى بأن أطول مدة لها أربع وعشرون ساعة ولا يحدث فيها تكسر وتقل وتعب وألم؛ والحمى المطبِقة تغاير الحميات الأخرى بأنها إذا تمكنت لا تزول قبل بضعة أيام، وتختلف حمى الغب عن سائر الحميات بأنها تظهر يوما وتختفي يوما؛ وتغاير حمى شطر الغب سائر الحميات بأن تكون يوما أشد وطأة ونوباتها أقصر، ثم تكون يوما آخر أكثر هدوءًا ونوباتها أطول؛ وتختلف حمى الربع عن غيرها بأنها تأتي يوما وتنقطع يومين ثم تعود في اليوم الرابع. وكل من هذه الأنواع يكون جنسًا وله أنواع. فإن كان الطبيب يعرف المنطق، وكان حاذقا وعرف نوع الحمى ومادتها، مركبة أو مفردة، سارع إلى العلاج. فإن حار في معرفة العلة فإنه يتجه إلى الله عز وجل ويستعينه وكذلك يتجه إليه إذا عجز عن العلاج ويسأله المدد فإليه مرجع كل شيء.

الحكاية الأولى

في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة[1] في سوق العطارين بنيسابور كنت في دكان محمد المنجم الطبيب فسمعت الإمام أبا بكر الدقاق يقول:

---

(١) ١١١٨-١٩.

أصيب أحد مشاهير نيسابور سنة اثنتين وخمسمائة[١] بالقولنج فدعاني ففحصته وأخذت في علاجه واستخدمت كل ما جاء في هذا الباب، ولكن المريض لم يشف ألبتة، ومضى على ذلك ثلاثة أيام. وقد رجعت من عنده يائسًا وقت صلاة المغرب، ظانا أنه سيقضي في منتصف الليل، ونمت في هذه الوسواس، فاستيقظت في الصباح وما كنت أشك أنه قد مات فصعدت إلى السطح ونظرت تلك الناحية -ناحية بيت المريض- وتسمعت فلم أسمع صراخا ينبئ بوفاته، فقرأت الفاتحة ثم وليت وجهي تلك الناحية وتمتمت قائلا: إلهي وسيدي ومولاي إنك قلت في الكلام المبرم والكتاب المحكم: {وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين}، وتحسّرت إذ كان شابا متنعما وقد تيسر له بلوغ كل ما يشتهي. ثم إني توضأت وذهبت إلى المصلى فصليت السنة، فإذا رجل يقرع باب البيت فنظرت فإذا هو تابع له فبشرني وقال: افتح، فقلت: ماذا جرى؟ قال: إنه شفي في هذه الساعة.

فعرفت أن هذا من بركات الفاتحة وأن هذه «الشربة» من «الصيدلية الربانية» وقد صارت هذه سابقة لي وصفتها في حالات كثيرة. فكانت ناجعة فيها جميعًا ومؤدية إلى الشفاء.

فعلى الطبيب إذًا أن يكون حسن الاعتقاد وأن يعظم أوامر الشرع ونواهيه.

وعلى الطبيب أن يحصّل في علم الطب «فصول بقراط» و«مسائل حنين بن إسحاق»[١] و«مرشد محمد بن زكريا الرازي»[٢] و«شرح النيلي»[٣] الذي أجمل هذه المؤلفات، وعليه أن يطالعها بعد قراءتها على أستاذ مخلص ثم إن عليه أن يستقصي استقصاءً تاما الكتب المتوسطة وهي «ذخيرة ثابت بن قرة»[٤] أو «المنصوري»[٥] لمحمد بن زكريا الرازي أو «الهداية» لأبي بكر الأجويني أو «الكفاية» لأحمد بن فرج

(١) ١١٠٨-٩.

أو «الأغراض»[٦] لسيد بن إسماعيل الجرجاني، وذلك على أستاذ مخلص. ثم عليه بعد ذلك أن يَحصُل على أحد الكتب المفصلة مثل «الست عشرة رسالة» لجالينوس أو «الحاوي»[٧] لمحمد بن زكريا أو «كامل الصناعة»[٨] أو «صد باب»[٩] (مائة باب) لأبي سهل المسيحي أو «القانون» لأبي علي بن سينا أو «الذخيرة»[١٠] للخوارزمي. وأن يقرأ هذا الكتاب المفصل في وقت الفراغ. فإذا أراد الاستغناء عن هذه الكتب كلها فقد يكتفي بالقانون فإن سيد الكونين وإمام الثقلين يقول: «كل الصيد في جوف الفرا» فكل ما ذكرت موجود في «القانون» مع زيادات كثيرة وكل من يحيط علمًا بما في المجلد الأول من «القانون» لا يخفى عليه شيء من أصول علم الطب وكلياته. ولو بعث بقراط وجالينوس إلى الحياة لحق لهما أن يسجدا لهذا الكتاب.

وقد سمعت أمرًا عجبا، ذلك أن رجلا انتقد كتاب أبي علي بن سينا وجعل من انتقاده كتابًا سماه «إصلاح القانون» وقد رأيت الرجل والكتاب، أما الرجل فمعتوه وأما الكتاب فمكروه وكيف يجوز لرجل أن يعيب عالما عظيما يقرأ له كتابًا فتكون أولى مسائله مشكلة عليه. ولقد انقضت أربعة آلاف سنة أذاب فيها الأوائل أرواحهم وأجهدوا أنفسهم ليضعوا قواعد علم الحكمة فلم يستطيعوا حتى إذا انقضت هذه المدة استطاع الحكيم المطلق والفيلسوف الأعظم أرسطوطاليس أن يزنه بقسطاس المنطق، وأن ينقده بمحك الحدود، وأن يكيله بمكيال القياس، حتى ارتفع عنه الشك وزال عنه الريب وصار منقحًا محققا. ولم يصل إلى كنه قوله ويسر على جادة سياقه، في الألف والخمسمائة سنة التي تلته، فيلسوف غير أفضل المتأخرين، حكيم المشرق، حجة الحق على الخلق أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا. فكل من يعترض على هذين العالمين العظيمين يخرج نفسه من زمرة أهل العقل ويسلكها في سلك المجانين ويعرضها في مجمع أهل العته. حفظنا الله تبارك وتعالى من هذه الهفوات. فالطبيب إذا علم ما في المجلد الأول من «القانون» وهو في

الأربعين من عمره، يصير أهلا للاعتماد عليه. ويجب عليه حين يبلغ هذه الدرجة أن يحرص على كتاب من هذه الكتب الصغيرة التي صنفها الأساتذة المجربون مثل «تحفة الملوك»[١١] لمحمد بن زكريا و«الكفاية»[١٢] لابن مندويه الإصفهاني أو «تدارك أنواع الخطأ في التدبير الطبي»[١٣] لأبي علي أو «خفي علائي»[١٤] أو «التذكرة»[١٥] لسيد بن إسماعيل الجرجاني.

ذلك أنه لا يجوز الاعتماد على الحافظة التي هي في نهاية مؤخر الدماغ، وأحد هذه الكتب يعينها إذا أبطأت في العمل.

وإذًا ينبغي لكل ملك أن يحرص على هذه الشروط التي عددنا في الطبيب الذي يختار؛ فإنه ليس من اليسير أن يضع روحه وعمره في يد كل جاهل، وأن يجعل تدبير حياته في حِجر كل غافل.

الحكاية الثانية

كان بختيشوع[١٦] من نصارى بغداد وكان طبيبًا حاذقًا مخلصًا صادقًا وكان في خدمة المأمون. وقد حدث أن أصيب بالإسهال أحد بني هاشم من أقرباء المأمون وكان يحبه حبًا جمًا، فأرسل إليه بختيشوع ليعالجه، فنهض الأمر، وبذل ما يملك من جهد[١٧]، مراعاة للمأمون. وقد حاول كل أنواع العلاج ولكن سدى، وجرَّب كل نوادر الدواء الذي يذكره ولكن بلا جدوى، وصار الأمر فوق طاقته، فخجل من المأمون وأدرك الخليفة أن الطبيب قد خجل فقال له: يا بختيشوع لا تخجل فإنك قد علمت ما في جهدك واستنفدت ما في طاقتك ولكن الله لم يشأ فسلّم الأمر للقضاء فإنا سلمنا به. فلما رأى بختيشوع أن المأمون قد يئس قال: بقي علاج واحد

وسأجربه تيمنًا بإقبال أمير المؤمنين، وإن كان فيه مخاطرة فلعل الله يجعل فيه الشفاء. وكان المريض يتبرز في اليوم خمسين أو ستين مرة، فأعد بختيشوع مسهلا وأعطاه إياه فزاد الإسهال يوم تعاطاه ولكنه انقطع في اليوم التالي. فسأله الطبيب: ما هذه المخاطرة التي أعددتها؟ فقال: إن مادة هذا الإسهال تستخرج من الدماغ وهي لا تنقطع ما لم تذهب عنه وكنت أخشى إذا أعطيته المسهل ألا تحتمله قواه فلما يئست من علاجه قلت: إن في المسهل أملا آخر الأمر، ولا أمل مطلقًا إذا لم أعطه إياه. فأعطيته وتوكلت على الله فإنه القادر. وقد منّ الله تعالى بالتوفيق فشفي المريض وصح القياس. وقد كان موته متوقعًا إن لم يُعط الدواء وكان الموت أو الحياة متوقعين إن تناوله فرأيت أن إعطاءه أولى.

الحكاية الثالثة[1]

يقول الشيخ الرئيس حجة الحق أبو علي بن سينا في كتاب «المبدأ والمعاد» في آخر فصل «إمكان وجود أمور نادرة عن هذه النفس»:

«وسمعت أن طبيبًا حضر مجلس ملك من السامانيين وبلغ من قبوله له أن أهّله لمؤاكلته على المائدة التي توضع له في دار الحرم ولا يدخلها من الذكور داخل وإنما يتولى الخدمة بعض الجواري. وكانت فيها جارية تقدم الخان وتضعه إذ قوّمها ريح ومنعها الانتصاب. وكانت حظية عند الملك فقال للطبيب: عالجها في الحال على كل

(١) نقلنا هنا النص العربي عن كتاب ابن سينا المذكور وقد نقله القزويني في حواشيه ص٢٤٠، المتحف البريطاني: Add. 16, 649, xxxIII, f. 488. وذكر الحكاية كل من القفطي ص١٣٤. وابن أبي أصيبعة (١/ ١٢٧) على أنها حدثت بين بختيشوع وهارون الرشيد.

حال. فلم يكن عند الطبيب تدبير طبيعي في ذلك الباب يشفي بلا مهلة، ففزع إلى التدبير النفساني وأمر أن يكشف شعرها فما أغنى، ثم أمر أن يكشف بطنها فما أثر، ثم أمر أن تكشف عورتها فلما حاول سائر الجواري ذلك نهضت فيها حرارة قوية أتت على الريح الحادثة تحليلا فارتجعت مستقيمة سليمة».

فإن لم يكن الطبيب حكيما قادرًا لا يصل إلى هذا الاستنباط ويعجز عن هذا العلاج وإذا عجز سقط من نظر الملك. وإذًا فمعرفة الأشياء وتصور الموجودات الطبيعية جزء من هذا الباب، وهو أعلم.

الحكاية الرابعة(١٨)

مرض الأمير منصور بن نوح بن نصر أحد ملوك السامانيين أيضًا مرضا أزمن حتى أقعده. وقد عجز الأطباء عن مداواته فأرسل رسولا يدعو محمد بن زكريا الرازي ليعالجه. فجاء الرازي حتى نهر جيحون ولكنه حينما بلغ شاطئه ورأى ماءه قال: أنا لا أركب السفينة. فقد قال الله تعالى: {ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة}. فليس من الحكمة أن يركب الإنسان المخاطر مختارا. ثم إنه صنف كتابه المنصوري في المدة بين رجوع رسول الأمير إلى بخارى وعودته منها، ثم سلمه إليه وقال: أنا هذا الكتاب وسترى فيه مقصودك ولا حاجة لك إليّ. فلما بلغ الكتاب الأمير غضب ثم أرسل للرازي ألف دينار وحصانا بعدته وقال لرسله: ترفقوا به فإن لم يجد الرفق معه فأوثقوا يديه ورجليه وضعوه في السفينة واعبروا. وقد عمل الرسل برأي الأمير. ولكن الرفق لم يُجد مع الرازي فأوثقوه وأركبوه السفينة وعبروا ثم فكوا وثاقه وقدموا له الجنيبة بعدتها فركبها وهو قرير النفس واتجه نحو بخارى. فقال له الرسل: إنا خفنا أن تخاصمنا بعد أن نعبر النهر ونفك وثاقك ولكنك لم تفعل ولم نر

منك ضجرا أو ضيق صدر. فقال: إني أعرف أن عشرين ألف رجل يعبرون جيحون كل سنة ولا يغرقون وأنا أيضًا ربما لا أغرق ولكن يجوز أن أغرق، فإذا غرقت فسيقال إلى يوم القيامة: كان محمد بن زكريا أبله إذ ركب السفينة مختارا فغرق فأكون من الملومين لا من المعذورين.

فلما بلغ الرازي بخارى أقبل عليه الأمير فرأى كل منهما الآخر ثم بدأ الرازي العلاج وبذل فيه جهده ولكن بلا جدوى. فدخل يوما عند الأمير وقال: غدا سأجرب علاجا آخر، على أن يُخرج لي الحصان الفلاني والبغل الفلاني. وهاتان الدابتان معروفتان بالسرعة تقطع الواحدة منهما أربعين فرسخا في الليلة. وفي اليوم التالي حمل الرازي الأمير إلى حمام نهر جيحون (نهر موليان) خارج القصر. ووقف الحصان والبغل معدّين ومشدودين مع غلام له على باب الحمام، ولم يأذن لأحد من خدم الأمير أو حاشيته بدخول الحمام. ثم إنه أجلس الأمير في وسط الحمام وصب عليه ماء فاترا ثم أعد شرابا فذاقه ثم سقاه إياه وأبقاه زمانا ليتيح للأخلاط أن تنضج في مفاصله. وذهب فلبس ثوبه ثم عاد ووقف أمام الأمير يشتمه، يقول: يا كذا وكذا قد أمرت بقيدي وإلقائي في السفينة والمخاطرة بحياتي فإن لم أجزك على هذا بإزهاق روحك فإني لا أكون ابن زكريا. فغضب الأمير غاية الغضب ونهض على ركبتيه وهو في مكانه فأخرج الرازي سكينا وأوسعه إهانة. فنهض الأمير قائما غضبا أو فَرقَا.

فلما رأى الرازي أن الأمير قد قام على رجليه تراجع وخرج من الحمام فركب هو وغلامه الحصان والبغل واتجها نحو جيحون فعبراه وقت العصر ولم يتوقفا عن السير حتى بلغا مرو. ومنها كتب للأمير كتابا قال فيه: أطال الله حياة الأمير صحيحَ الجسم نافذ الأمر لقد بدأت العلاج وبذلت كل ما في الوسع فرأيت حرارة غريزية

مع ضعف تام، وأدركت أن العلاج الطبيعي قد يطول فعدلت عنه ولجأت إلى العلاج النفساني فحملت الأمير إلى الحمام وتركته حتى تنضج الأخلاط نضجا تاما، ثم أثرت غضبه حتى يساعد الغضب في إذكاء الحرارة الغريزية فتقوى وتحلل هذه الأخلاط الزائدة، ولم يكن من الصواب أن أقابل الأمير بعد هذا.

وكان الأمير حينما نهض على رجليه -وقد خرج محمد بن زكريا وركب فورًا- غشي عليه فلما أفاق خرج وأخذ يصيح على الخدم. وسأل: أين ذهب الطبيب؟ فقالوا: إنه خرج من الحمام فركب الحصان وركب خادمه البغل وانصرفا. فعرف الأمير المقصود من فعل الرازي ثم خرج ماشيا من الحمام. وذاع الخبر في المدينة، وجلس الأمير في مجلسه وأقام الخدم والحاشية الأفراح وتصدقوا وذبحوا الذبائح وواصلوا الاحتفال وأخذوا يفتشون عن الطبيب في كل مكان فلم يجدوه. وفي اليوم السابع جاء خادم الرازي راكبًا البغل ومعه الحصان وسلم الأمير كتابه فاطلع عليه وتعجب وعذر الرازي وأمر له بالصلة حصانا وعدته، وجبة وعمامة وسلاحا وغلاما وجارية، وأمر أن يأخذ وهو في الري ألفي دينار ذهبا كل سنة من أملاك المأمون[1]، ومائتي خروار (حمل حمار) من الغلة. وقد أرسل إليه كتاب هذه الصلة والخلع الأخرى مع رجل مشهور من مرو. وشفي الأمير تماما وبلغ محمد بن زكريا مقصوده.

الحكاية الخامسة

كان لأبي العباس مأمون خوارزمشاه[١٩] وزير اسمه أبو الحسين أحمد بن محمد

(١) هذه العبارة غير واضحة «أملاك مأمون».

السهيلي[٢٠]، كان حليم الطبع كريم النفس فاضلا، وكذلك كان خوارزمشاه حكيم الطبع صديقا لأهل الفضل، وبفضلهما اجتمع كثير من الحكماء وأهل الفضل في هذه الحضرة مثل أبي علي بن سينا وأبي سهل المسيحي وأبي الخير الخمار[٢١] وأبي الريحان البيروني وأبي نصر العراق[٢٢]، وكان هذا ابن أخي خوارزمشاه وكان يلي بطليموس في علم الرياضة وأنواعه. وكان أبو الخير الخمار ثالث بقراط وجالينوس في الطب. وكان أبو الريحان في مكنة أبي معشر وأحمد بن عبد الجليل في النجوم. وكان أبو علي بن سينا وأبو سهل المسيحي خلفين لأرسطوطاليس في علم الحكمة الذي يشمل كل العلوم. وكانت هذه الطائفة من العلماء في القصر غنية عن أمور الدنيا، وكان لبعضهم أنس لبعض بالمحاورة وطيب عيش بالمكاتبة. ولكن الزمن لم يرض بهذا الفلك لم يُجزه فنغص عيشهم وانقلبت هذه الأيام وبالا عليهم. فقد أتى أحد العظماء من قبل السلطان يمين الدولة محمود ومعه كتاب فيه: إني سمعت أن في مجلس خوارزمشاه جماعة من أهل الفضل ليس لهم نظير مثل فلان وفلان فعليك أن ترسلهم إلى مجلسنا ليشرف بهم ولكي نفيد من علومهم وكفاياتهم ولتكون هذه منة لخوارزمشاه علينا. وكان الرسول الرئيس حسين بن علي بن ميكال، وكان من أفاضل العصر وأماثله وكان أعجوبة أهل زمانه. وكانت دولة محمود في أوجها وملكه مزدهرًا ودولته عالية الشأن وملوك زمانه يهابونه وينامون الليل وهم في فزع منه. فأنزل خوارزمشاه الرئيس حسين بن ميكال مكانا طيبا وأكرمه إكراما عظيما ولكنه دعا الحكماء وعرض عليهم هذا الكتاب قبل أن يأذن له بحضور المجلس، ثم قال لهم: إن محمودًا الغزنوي ملك قوي وعنده جيش ضخم وقد أخضع خراسان وهندوستان وهو يطمع في العراق وأنا لا أستطيع الخروج على مثاله أو عصيان أمره فماذا تقولون في هذا الكتاب؟ فقال أبو علي بن سينا وأبو سهل المسيحي: نحن لا نذهب إليه. وأما أبو نصر وأبو الخير وأبو الريحان فقد رغبوا في الذهاب إليه وكانوا

قد سمعوا بأخبار صلاته وهباته. فقال خوارزمشاه لابن سينا وأبي سهل: إنكما لا ترغبان في الذهاب إلى محمود فخذا طريقكما قبل أن آذن لهذا الرجل بمقابلتي. ثم إنه يسر لهما الأسباب وعين لهما دليلا فسارا نحو جرجان عن طريق الصحراء[١].

وفي اليوم التالي دعا خوارزمشاه الرسول حسين بن علي بن ميكال إلى المجلس فأكرم وفادته وقال: «إني قرأت الكتاب ووقفت على مضمون رسالة السلطان وأمره ولكن أبا علي بن سينا وأبا سهل المسيحي قد رحلا. وأما أبو نصر وأبو الريحان وأبو الخير فيستعدون للتوجه للخدمة».

وقد أخذ هؤلاء أهبتهم في وقت قصير فأرسلهم خوارزمشاه مع الرئيس بن ميكال فجاءوا إلى حضرة السلطان محمود في بلخ والتحقوا بمجلسه.

وكان مقصود السلطان منهم أبا علي بن سينا. وكان أبو نصر نقاشا فأمره بتصوير ابن سينا على الورق. ثم دعا النقاشين وأمرهم برسم أربعين صورة منها فأرسلها مع الأوامر السلطانية إلى أطراف البلاد وأمراء الأقاليم وقال: إن رجلا بهذه الصورة اسمه أبو علي ابحثوا عنه وأرسلوه إليّ. ولما انصرف أبو علي وأبو سهل مع دليل أبي الحسين السهلي من عند خوارزمشاه حثا السير فقطعا، إلى الصباح، خمسة عشر فرسخًا. ثم إنهما نزلا صباحا عند بئر فأخذ أبو علي التقويم ليرى بأي طالع يخرج فلما نظر التفت إلى أبي سهل وقال: إنا سنضل طريقنا حسب هذا الطالع فقال أبو سهل: رضينا بقضاء الله وإني أعلم كذلك أني لن أنجو بنفسي في هذا السفر فإن تسييري في هذين اليومين إلى العيوق وهو قاطع. فلم يبق لي أمل وسيكون ما بيننا بعد هذا تلاقة الأرواح. ثم سارا.

---

(١) النص الفارسي يقول: از راه كركان أي الذئاب والمقصود به طريق الصحراء الموحش.

يحكي أبو علي أن ريحا هبت في اليوم الرابع فثار العجاج وأظلم الكون فضلوا سبيلهم إذ طمست الرياح معالمه، فلما هدأت كان الدليل أكثر منهما جهلا بالطريق. وقد مات أبو سهل في هذه الصحراء الحارة بالعطش لفقد الماء وبلغ الدليل وأبو علي بعد آلاف الشدائد مدينة باورد. ثم رجع الدليل وأسار أبو علي إلى الطوس ثم بلغ نيسابور فرأى قوما يطلبون أبا علي فنزل في زاوية شارد الفكر وبقي بها عدة أيام. ومن هناك اتجه إلى جرجان وكان قابوس[١] ملكا عليها، وهو رجل عظيم صديق للفضلاء، حكيم الطبع. وقد عرف أبو علي أنه لا يمسه ضر هناك. فلما بلغ جرجان نزل في رباط وكان بجواره مريض فعالجه فشفي ثم عالج مريضا آخر فشفي. وكان الناس في الصباح يحضرون له القنينات ليفحص ما فيها من البول وكان له من ذلك رزق يزيد يوما بعد يوم.

وأمضى على هذا النحو زمانا إلى أن مرض أقرباء قابوس بن وشمكير ملك جرجان فقام الأطباء بعلاجه وبذلوا الجهد وجدوا كل الجد فلم تشف علته. وكان قابوس عظيم التفكر في هذا فأخبره أحد خدمه أنه قد جاء إلى رباط كذا طبيب عظيم شاب له يد مباركة جدا وقد شفي على يديه أناس كثيرون؛ فأمر قابوس بدعوته والمجيء به إلى المريض لمعالجته فرُب يد أكثر بركة من يد. فطلبوا أبا علي وذهبوا به إلى المريض فرآه شابا غاية في الجمال[٢٤] متسق الأعضاء قد طر شاربه. ولكنه مضنى. فجلس ابن سينا وحبس نبض الفتى وطلب البول وفحصه ثم قال: أريد رجلا يعرف غرنات جرجان ومحلاتها كلها، فأحضروا الرجل وقالوا: هذا هو. فوضع أبو علي يده على نبض المريض وأمر الرجل بأن يذكر أسماء محلات جرجان. فأخذ الرجل يذكرها حتى إذا بلغ اسم محلة معينة تحرك نبض المريض حركة عجيبة. فقال

(١) شمس المعالي قابوس بن وشمكير، حكم من ٣٦٦ حتى ٣٧١ (٩٧٦-٩٨١) ثم من ٣٨٨ حتى ٤٠٣ (٩٩٨-١٠١٢).

أبو علي: أذكر اسماء شوارع هذه المحلة فذكرها الرجل ولما بلغ اسم شارع معين عادت حركة النبض العجيبة. فقال أبو علي: نريد رجلا يعرف جميع بيوت هذا الشارع. فأحضر الرجل وأخذ يذكر أسماء البيوت حتى إذا بلغ اسم بيت منها تحرك النبض الحركة نفسها. قال أبو علي: والآن أريد رجلا يعرف أسماء أهل البيوت ويستطيع أن يذكرها، فأحضروه فأخذ في سرد الأسماء حتى إذا بلغ اسمًا منها حدثت نفس الحركة من نبض المريض. حينئذ قال أبو علي: تم الأمر. ثم التفت إلى معتمدي قابوس وقال: إن هذا الشاب عاشق لفلانة بنت فلان في محلة كذا وشارع كذا وإن دواءه وصال تلك الشابة وعلاجه رؤيتها. وأرهف المريض السمع فسمع كل ما قاله الرئيس أبو علي فخجل وغطى وجهه بالوسادة. فلما حقق الأمر وجد كما قال ابن سينا. فأطلعوا عليه قابوس فعجب عجبا عظيما وقال: أحضروه عندي فحملوه إليه[٢٥] وكانت معه صورته التي أرسلها السلطان محمود. فلما مثل أمامه قال له: أأنت أبو علي؟ قال: نعم أيها الملك المعظم! فنزل قابوس من العرش ومشى بضع خطوات ليستقبله ثم عانقه وجلس معه على وسادة أمام العرش وأحاطه بالإجلال ثم قال في تلطف: لا شك أن على الأجل الأفضل والفيلسوف الأكمل أن يشرح طريقة العلاج. فقال أبو علي: لما رأيت النبض والتفسرة أدركت أن العلة هي العشق وقد بلغ كتمان الشاب لهذا السر أني لو سألته لما صدقني، فوضعت يدي على نبضه وذكرت أسماء المحلات فلما ذكر اسم محلة المعشوق تحرك عشقه فتبدلت حركته فعرفت أنه في هذه المحلة فأشرت بذكر أسماء الشوارع فلما سمع اسم شارع معشوقه حدث الأمر نفسه فعرفت اسم الشارع فأمرت بذكر أسماء البيوت كلها فلما بلغ اسم بيت المعشوق ظهرت الحالة نفسه فعرفت البيت أيضًا فأمرت بذكر أسماء أهل البيوت كلها فلما سمع اسم المعشوقة تغير تمام فعرفت اسمها أيضًا. فقلت له فلم يستطع أن ينكر ثم أقر.

فتعجب قابوس من هذه المعالجة كثيرا ولبث حائرا والحق أنها عجيبة فقال: أيها الطبيب الأجل الأفضل الأكمل إن العاشق والمعشوق كلاهما ولدا أختي وهما ولدا خالة فاعمل الاختيار لنعقد زواجهما. فأعد أبو علي الاختيار السعيد وتم هذا العقد وتزوج العاشق بمعشوقه وبرئ هذا الشاب الأمير الجميل الصورة من مرض كاد يهلكه. وبعد ذلك أحسن قابوس إلى أبي علي كل الإحسان. ثم انتقل من هناك إلى الري حيث أسندت إليه وزارة الملك شاهنشاه علاء الدولة[٢٦] كما هو معروف في تاريخ الرئيس علي بن سينا.

الحكاية السادسة

كان صاحب «كامل الصناعة» طبيبًا لعضد الدولة في فارس بمدينة شيراز، وكان في هذه المدينة حمال يحمل على ظهره أحمالا تزن أربعمائة أو خمسمائة منّ، وكان هذا الحمال يصاب كل خمس أو ستة أشهر بدوار فلا يقر له قرار عشرة أو خمسة يوما وليلة. وانتابه هذا الدوار مرة ومضى عليه سبعة أيام أو ثمانية فهمَّ بقتل نفسه مرات، فاتفق أخيرا أن مر هذا الطبيب الكبير بدار الحمال فأسرع إليه أخوته وحيوه واستحلفوه بالله عز وجل ثم قصوا عليه أحوال أخيهم ودواره. فقال الطبيب: أروني إياه فحملوه إليه، فلما رآه وجده رجلا قويا عظيم الهيكل وقد لبس في رجليه حذاء تزن الواحدة منه مَنًّا ونصف من، ثم حبس نبضه وطلب التفسرة ثم قال: احملوه معي إلى الصحراء ففعلوا. فلما صاروا في الصحراء قال الطبيب لغلامه: انزع العمامة من فوق رأس الحمال ولفها حول رقبته وأحكم عقدها ثم أمر غلاما آخر قائلا: انزع الحذاء من رجليه واضربه به على رأسه عشرين مرة. ففعل الغلام وعلا صياح أبناء الحمال. ولكن الطبيب كان من الوقار والهيبة بحيث لم يستطيعوا معه

شيئا. ثم قال للغلام: أمسك الشال الذي عقدته حول رقبته واركب حصاني واسحبه وراءك واجر به، ففعل الغلام وجرى به كثيرا في الصحراء حتى نزف الدم من أنفه، فقال الطبيب: الآن دعه. فتركه. وكان هذا النزف أنتن من الجيفة، ثم قال الرجل في هذا الرعاف وقد نزف من أنفه ثلاثمائة درهم ثم انقطع الدم. وحملوه بعد ذلك إلى البيت فلم يستيقظ بل ظل في سبات أربعا وعشرين ساعة. وقد زال دواره هذا واستغنى عن العلاج ولم يعاوده.

وقد سأله عضد الدولة عن كيفية هذه المعالجة فقال: أيها الملك إن هذا الدم ليس مادة في الدماغ تعالج بيارج الصبر (يارءء فيقرا)[٢٧]، وليس هناك طريقة للعلاج غير ما عملت.

الحكاية السابعة

الماليخوليا علة حار الأطبار في علاجها. والأمراض السوداوية مزمنة كلها ولكن للمليخوليا خاصية هي أنها تزول ببطء. وقد عدد أبو الحسن بن يحيى في كتابه «المعالجة البقراطية»[٢٨] الذي لم يؤلف أحد مثله في الطب، الأئمة والحكماء والفضلاء والفلاسفة الذين أصابتهم هذه العلة. وقد حكى لي أستاذي الشيخ الإمام أبو جعفر بن محمد أبو سعد المعروف بصرخ عن الشيخ الإمام محمد بن عقيل القزويني عن الأمير فخر الدولة أبي كاليجار البويهي أن أحد أعزة بني بويه أصيب بالماليخوليا فخيل إليه مع هذه العلة أنه صار بقرة، فكان يصيح كل يوم ويقول: هذا وذاك إذبحوني فإن لكم من لحمي هريسة طيبة. وبلغ به الأمر أنه امتنع كل الامتناع عن الأكل، ومرت الأيام وهو يذوي وقد عجز الأطباء عن معالجته. وكان الأستاذ أبو علي بن سينا في ذلك الوقت وزيرا، وقد أقبل عليه الشاهنشاه علاء الدولة محمد بن

دشمنزيار فوضع شئون الملك كلها بين يديه، تاركا جميع الأمور لرأيه وتدبيره. والحق أنه لم يكن لملك قط بعد الإسكندر الذي وزر له أرسطوطاليس وزير مثل أبي علي. وقد كان هذا وهو وزير يستيقظ كل يوم مبكرا فيصنف ورقتين من كتاب الشفا، فإذا طلع الصبح الصادق اجتمع بتلاميذه مثل كيا الرئيس بهمنيار[٢٩] وأبي منصور بن زيله[٣٠] وعبد الواحد الجوزجاني[٣١] وسليمان الدمشقي وأنا أبو كالينجار، وقد كنا نستبق إلى القراءة عليه حتى إسفار الصبح ثم نصلي وراءه. وكنا حين انصرافنا نجد على باب قصره ألف فارس من الكبراء والعظماء وأرباب الحوائج وأصحاب العرائض، قد تجمعوا عنده. وكان الأستاذ يركب وتسير هذه الجماعة في خدمته، فإذا بلغ الديوان كان حوله ألفا فارس، وكان يبقى في الديوان حتى صلاة الظهر. وحين يعود لداره يتغدى على مائدته الكثيرون. ثم يذهب للقيلولة فإذا استيقظ صلى ثم يذهب إلى الشاهنشاه فيبقى معه حتى صلاة العصر، يفاوضه ويحاوره في مهمات الملك، وهما اثنان لا ثالث لهما. والمقصود من هذه الرواية هو أنه لم يكن للأستاذ وقت فراغ.

فلما عجز الأطباء عن معالجة هذا الشاب ذكروا قصته أمام الشاهنشاه المعظم علاء الدولة والتمسوا شفاعته لدى الأستاذ ليعالجه، فأشار عليه علاء الدولة فقبل، ثم قال: بشروا هذا الشاب بأن «القصاب آت ليذبحك». فقالوا له ذلك ففرح، وركب الأستاذ وجاء في موكبه المعتاد إلى قصر المريض، ثم دخل مع رجلين والسكين في يده وقال: أين هذه البقرة لأذبحها؟ فقلد الشاب المريض خوار البقرة، يعني أنه هنا، فقال الأستاذ: جروها إلى فناء القصر وأوثقوا يديها ورجليها وأضجعوها. فلما سمع المريض هذا جرى إلى وسط القصر واضطجع على جنبه الأيمن فأحكموا وثاق يديه ورجليه ثم جاء أبو علي وسن السكين على السكين ثم جلس ووضع يده على خصر المريض، كعادة القصابين، وقال: «وه، يا لها من بقرة

هزيلة، إنه لا يحل ذبحها، اعلفوها حتى تسمن». وقام فخرج، ثم قال للرجال: فكوا يديه ورجليه واحملوا إليه ما آمر به من طعام وقولوا له: كل لتسمن سريعا. وهكذا فعلوا ما أمر به الأستاذ، فكانوا يحملون إليه الطعام فيأكله ثم كانوا يعطونه ما أمر به الأستاذ من الأشربة والأدوية ويقولون له: كل كثيرا فإن هذا نافع تسمن عليه البقرة. فكان يسمع ويأكل على أمل أن يسمن فيذبحوه. وبعد ذلك بدأ الأطباء في علاجه كما وصف أبو علي، فكان ينقه شهرا بعد آخر حتى عوفي.

والعقلاء جميعا يدركون أن مثل هذا العلاج لا يستطاع إلا بالفضل الكامل والعلم التام والحدس الصادق.

الحكاية الثامنة

كان في هراة، في زمان ملكشاه وبعض زمان سنجر[٣٢] فيلسوف اسمه الأديب إسماعيل. كان رجلا عظيما حقا، فاضلا كاملا. وكان يعيش من دخل طبه. وله نوادر كثيرة في هذا الضرب من العلاج. مر يوما بسوق المذبح فرأى قصابا يسلخ الغنم وكان يمد يده في جوفها من وقت لآخر فيأخذ الدهن الحار ويأكله. فلما رأى الطبيب هذا الأمر قال لبقال مجاور لهذا القصاب: إذا مات هذا فخبرني بموته قبل أن يدفن. فقال البقال: سأخبرك. ولما مضى على هذا الحديث خمسة أشهر أو ستة سمع البقال صباح يوم أن فلانا القصاب قد مات بالأمس فجأة بغير علة أو مرض. فذهب للعزاء فرأى جماعة ممزقة ثيابها وجماعة تحرقها الحسرات، فقد كان الميت شابا وله أولاد صغار، فتذكر البقال قول الأستاذ إسماعيل فأسرع وخبره فقال: لقد طال عليه النزع. ثم أخذ عصاه وسار إلى البيت فرفع النقاب عن وجه الميت وحبس نبضه وأمر رجلا أن يضربه على ظهر رجله ففعل، وبعد ساعة قال له: كفى ثم بدأ في

علاج السكتة. وفي اليوم الثالث قام المريض وقد أصابه الفالج ولكنه عاش عدة سنين. فتعجب الناس، إذ تنبأ هذا الطبيب الكبير بأن الرجل سيصاب بالسكتة.

الحكاية التاسعة

كان شيخ الإسلام عبد الله الأنصاري[٣٣] قدس الله روحه متعصبًا على الأستاذ إسماعيل هذا، وقد قصده بالشر عدة مرات وأحرق كتبه، وهذا تعصب ديني فإن الهرويين كانوا يعتقدون أنه يحي الموتى، وهذا الاعتقاد ضار بعامة الناس.

واتفق أن الشيخ مرض وظهر عليه الفواق في مرضه، وبذل الأطباء في علاجه كل جهد بلا جدوى، فيئسوا ثم بعد اليأس أرسلوا قارورة بوله إلى الأستاذ الأديب إسماعيل وبدلوا اسمه وسألوه العلاج، فلما فحص القارورة قال: هذا بول فلان وقد ظهر عليه الفواق وعجز الأطباء عن علاجه، قولوا له: يُدَقُّ له أستار[١] من قشر لباب الفستق مع أستار من السكر العسكري ويعطى هذا المسحوق حتى يشفى، وقولوا له: عليك بتعلم العلم ولا ينبغي لك إحراق الكتب. وقد جُعل من هذين المسحوقين سفوف وشربه المريض فهدأ الفواق فورًا وشفي.

الحكاية العاشرة

أصيب أحد مشاهير مدينة الإسكندرية بوجع في أنامله فكان لا يقر له قرار ولا يستريح قط. فأخبر جالينوس بأمره فأرسل إليه مرهمًا ليوضع على أعلى كتفه، فعمل

(١) ٤ ونصف مثقال.

بأمره فسكن الألم في الحال وعوفي المريض. وعجب الأطباء فسألوا جالينوس: ما هذا العلاج الذي أشرت به؟ فقال: إن مخرج هذا العصب الذي يسبب الألم في الأنامل هو أعلى الكتف، وقد عالجت الأصل فشفي الفرع.

الحكاية الحادية عشرة

ظهرت على صدر الفضل بن يحيى البرمكي بعض علامات البرص فضايقته، فكان يذهب إلى الحمام ليلا حتى لا يطلع على مرضه أحد. فجمع ندماءه فسألهم: من أحذق طبيب اليوم في العراق وخراسان والشام وفارس ومن هو أبعد الأطباء صيتًا؟ فقالوا: إنه جاثليق فارس بشيراز. فأوفد رسولا وأحضر الجاثليق من فارس إلى بغداد، ثم اختلى به وقال له ممتحنًا: إن في رجليّ فتورًا يجب علاجه. فقال الجاثليق: عليك أن تمتنع عن أكل اللبنيات والمخللات وأن تأكل حساء الحمص بلحم دجاج عمره سنة مع حلوى من مح البيض والعسل، وأصف لك الدواء حين يتم تنظيم الغذاء. فقال الفضل: سأفعل ما ذكرت.

وأكل الفضل، في تلك الليلة من كل شيء كعادته. وكان هناك زيرباي معقدة فأكل منها ولم يحترز من الكوامخ[٣٤] والرواصير[٣٥]. وفي اليوم التالي حضر الجاثليق فطلب قارورة البول لفحصه فاحمر وجهه وقال: أنا لا أستطيع علاج هذا، فإني قد نهيتك عن المخللات واللبنيات فأكلت الزيرباي ولم تحترز من أكل الكامة والأنبجات[٣٦]، فلا يصح لك علاج.

فاستحسن الفضل بن يحيى حدس هذا الطبيب العظيم وحذقه وصرح له بعلته وقال: لقد دعوتك لهذا الأمر وكان ما قدمت امتحانًا لك. فبدأ الجاثليق العلاج

عاملا بما جاء في هذا الباب، ولكن الأيام مرت على غير فائدة والجاثليق الحكيم يتميز غيظا فإن المرض ليس بذي بال ولكنه مع ذلك قد طال؛ حتى إذا كان جالسًا يوما مع الفضل بن يحيى قال: مولاي، قد قمت بما وجب من علاج فلم يؤثر قط فلعل الوالد غاضب عليك فأرضه حتى أرفع عنك علتك. فقام الفضل في تلك الليلة وذهب إلى يحيى ووقع على قدميه وسأله الرضا عنه، فرضي هذا الوالد الشيخ وواصل الجاثليق أنواع العلاج نفسه فأخذت صحة الفضل في التقدم ولم يمض كثير حتى شفي شفاء تاما.

فسأل الفضل الجاثليق: كيف عرفت أن سبب علتي غضب والدي. فقال الجاثليق: إني عملت كل ما ينبغي من علاج فلم يفد شيئا، فقلت: إن هذا الرجل العظيم قد أصيب بلكدة من جهة ما ونظرت فلم أجد أحدا ينام الليل غاضبًا عليك أو محزونًا منك بل إن كثيرا من الناس ليسعدون بصداقتك وصلاتك وخلعك إلى أن علمت أن والدك غاضب عليك وأن بينكما خلافا، فعرفت أن هذا العلاج فعملت به، وذهب المرض ولم يخطئ ظني.

وأغدق جعفر بن يحيى النعم على الجاثليق ثم أرسله إلى فارس.

الحكاية الثانية عشرة

في سنة سبع وأربعين وخمسمائة[1] وقعت معركة عند باب أوبة بين سلطان العالم سنجر بن ملكشاه ومولاي علاء الدنيا والدين الحسين خلّد الله تعالى ملكهما وسلطانهما. وقد أصابت الغور عين السوء، فاستخفيت في هراة إذ كنت منسوبا إلى

(١) ١١٥٢-٥٣.

الغوريين وقد أثار عليهم أعداؤهم كل حقد كما أظهروا الشماتة بهم. وتصادف وجودي ليلة، ونحن في هذا الوضع في بيت رجل فاضل، فبعد أن أكلنا خرجت لقضاء حاجة، فأخذ الرجل الكريم الذي تفضل بإدخالي البيت يثني علي قائلا: إن الناس يعرفونه شاعرًا، ولكنه إلى الشعر عالم بالنجوم والطب والترسل ومتبحر في أنواع العلوم الأخرى. فلما عدت إلى المجلس لقيني رب البيت بإجلال خاص كالذي يكون من أصحاب الحاجات، ثم جلس بعد قليل قريبًا مني. وقال: يا صاحبي إن لي بنتا واحدة وليس أحد سواها، وهي نعمتي وهذه البنت مريضة. ذلك أنها في أيام الحيض تنزف عشرة أو خمسة عشر منًا من الدم، فتضعف ضعفًا شديدًا، وقد استشرت الأطباء وعالجها كثير منهم ولكن بغير فائدة، فإنهم إذا وقفوا الدم ينتفخ بطنها ويزداد ألمها وإذا تركوه ينزف يظهر عليها الهزال، وأخاف أن تخور قواها جملة.

فقلت: أخبرني حين تعود هذه العلة.

فلما انقضت عشرة أيام جاءتني أم المريضة فسرت معها وأحضرت البنت أمامي، فرأيتها رائعة الجمال، حائرة يائسة من الحياة فلما رأتني ارتمت على قدمي وقالت: أي أبي أغثني لوجه الله فإني شابة ولم أر الدنيا. فانهمر الدمع من عيني وقلت لها: طيبي نفسًا فهذا أمر يسير. ثم وضعت يدي على نبضها فوجدته قويا. وكذلك كان لون وجهها عاديا. وقد توفرت فيها أكثر الأمور العشرة كالامتلاء والقوة والمزاج والسحنة والسن والفصل وهواء البلد والعادة والأعراض الملائمة والصناعة. فدعوت فصّادًا وأمرته بفصد عرق الباسليق في يديها، ثم أخرجت النساء من حولها، وقد خرج الدم الفاسد، وأخذت منها بالإمساك والتسريح، ألف درهم من الدم، فسقطت المريضة لا تعي. فأمرت بإحضار النار وشويت بجانبها اللحم

والطير حتى عبق البيت برائحة الكباب وصعد بخاره إلى دماغها فثابت إلى رشدها وتحركت وتأوهت. ثم أعددت لها شرابًا مقويا لذيذ الطعم. وعالجتها أسبوعًا حتى استعادت الدم الذي فقدت وزالت عنها العلة وانتظم الحيض عندها. وكنت أناديها بابنتي، وكانت تناديني بأبي، وهي اليوم مني كأبنائي.

فصل

ليس المقصود من تحرير هذه الرسالة وتقرير هذه المقالة إظهار الفضل أو إذكار الخدمة، بل هي إرشاد للمبتدي وحمد لمولاي الملك المعظم المؤيد المظفر المنصور حسام الدولة والدنيا والدين، نصرة الإسلام والمسلمين، عمدة الجيوش في العالمين، افتخار الملوك والسلاطين، قامع الكفر والمشركين، قاهر المبتدعة والملحدين، ظهير الأيام، مجير الأنام، عضد الخلافة، جمال الملة، جلال الأمة، نظام العرب والعجم، أصيل العالم، شمس المعالي ملك الأمراء أبو الحسن علي بن مسعود بن الحسين نصير أمير المؤمنين[٣٧]، أدام الله جلاله، وزاد في السعادة إقباله، الذي يفخر الملك بمكانه والذي يبادر الحظ لخدمته. زين الله الدولة بجماله والملك بكماله، وأنار بحسن سيرته وسريرته عين ابنه المظفر منصور شمس الدولة والدين وجعل الحفظ الإلهي والعناية الملكية وشنا على قدر حشمتهما وقامة عصمتهما، وجعل قلب مولاي ولي الإنعام الملك المعظم العالم العادل المؤيد المظفر المنصور فخر الدولة والدين، بهاء الإسلام والمسلمين، ملك ملوك الجبال، ببقائهما سعيدا إلى الأبد لا إلى حين.